



Rhetorical reception and transfiguration of the implicit reader in the heritage text

Reading in the Maqamat of BadialZaman al Hamdhani-

نعيمة عون¹ ، سليم بتقة²

¹جامعة محمد خيضر بسكرة(الجزائر) n-aoun@univ-biskra-dz

²جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر) s.betka@univ-biskra-dz

الملخص: تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على مصطلح التلقي في سيرورة اللقاء الذي يجمع بين التلقي في التراث البلاغي العربي، كمفهوم يبين الفهم لنوعية العلاقة بين المرسل (المخاطب) والمرسل إليه (المخاطب) والرسالة (الخطاب)، وقضية التأثير والتأثر التي تبناها النقاد العرب اليوم، ومن بينها القضية الاصطلاحية لنظرية التلقي الغربية (مدرسة كونستانس الألمانية)، وهو نموذج جديد بدأ يفرض نفسه على ساحة الدراسات الجمالية الأدبية، من خلال هرمينوطيقا التلقي عند ياقوت الحموي وبنو ميناويولوجيا التلقي عند أيزر، لهذا شمل موضوع الدراسة تقصي ملامح التلقي باعتباره فعل إنساني قدم قدم الإبداع، في ضوء الموروث الأدبي—فن المقامة—وتوضيح تفاعل بعض المفاهيم والمصطلحات لظاهرة التلقي قديما وحديثا، من خلال تنوع أمحاط التلقي عبر الظرفية التاريخية.

الكلمات المفتاحية:

المتلقي، علم البلاغة، جمالية التلقي، مقامات بديع الزمان الهمذاني.

The present study aims to identify the term 'receive' in the process of the encounter that combines the reception in the Arabic dialect heritage, as a concept that shows the understanding of the quality of the relationship between the sender, the addressee, the message, the issue of influence and influence adopted by the Arab critic today. Among them is the conventional case of Western receiving theory (the German Constant School), a new model that began to impose itself on the field of aesthetic studies through the Hermenautics of Receiving at Yaos and Finnologia of Receiving at Aizer. This included the study of the act of receiving as a human act. In the light of the literary heritage, creativity is presented in the light of the establishment and the clarification of the interaction of certain concepts and terms of the phenomenon of reception, both ancient and modern.

Keywords: Receive, Receiver, The art of eloquence, Aesthetic of reception, Maqamat Badi'zaman Al – Hamzan

١. مقدمة:

إنّ قضية التلقي تشكل ركنا أساسيًا من أركان العملية الإبداعية والتي تتكون من: المبدع، النصّ والمتلقي، وقد حظيت قضية التلقي اهتماما قويا لأنها تتناول خلق المعنى وتشكيله أثناء عملية التلقي، فضلا أن المتلقي أصبح يمثل عنصرا إيجابيا وفعالا في خلق المعنى الأدبي ومقصد المبدع والمتابع للعمل الإبداعي، لأنّه لم يعد قارئاً مستسلما للنص، بل أصبح هو الذي يكشف عن خصوصيّة النصّ وجماليته، وهو الذي يستطيع فك أسرار النصّ وإبراز قيمته الفنيّة و الجماليّة.

ولما كان التلقي فضاء معرفيا متعدد الأبعاد كان لكل مفكر أن يُعرّفه من وجهة نظره الخاصة التي ترتبط بالخصوصية المعرفية، الناتجة عن التصورات المختلفة للمنطلقات التاريخية والاجتماعية والتّقديّة والثّقافية وغيرها، فالتلقي عند المفسرين لكتاب الله وعلماء الحديث مثلا كان من منظور علم البلاغة والإعجاز، وهنا لا بد من الإشارة أن وجود هذه القضية (التلقي) في تراثنا ليست دعوى إلى السبق والزيادة، ولكن النظرة الموضوعية إلى ما كتبه علماؤنا عند تعرضهم للبحث ودراسة الخطاب القرآني والخطاب الأدبي، حيث تثبت بأنهم عرفوا هذه النظريّة، ولكن ليس بنفس المفاهيم ومصطلحات نظرية التلقي الحديثة. (جمالية التلقي الألمانية)، التي انطلقت من خلفيات فلسفية ونقدية ارتكزت عليها، بالرغم من أن تصوراتها ومفاهيمها انبثقت من طبيعة الثقافة العربية، إذ كانت تربط العملية الإبداعية بالمتلقي في فهم النص واستيعابه، واكتشاف ما يحمله من معان ودلالات، وما يكتنفه من قيم فنية وخصائص جمالية.

إنّ مفاهيم التلقي في نسختها العربية أو الغربية أضحت أمرا مألوفا على السّاحة التّقديّة العربيّة، وخصوصا "الموروث الأدبي"، لأنّه صياغة متجددة للإبداع وليس قواعدا وأسساً ثابتة تؤدي إلى الجمود والتّحجر والعجز عن مسايرة حركة الواقع التي هي في تطور مستمر، حيث يقول محمد مندور " في الحق أنّ المكتبة العربيّة القديمة كنوزا نستطيع إذ عدنا إليها وتناولناها بعقولنا المثقفة ثقافة أوروبية، أنّ نستخرج منها الكثير منّ الحقائق التي لا تزال قائمة حتى اليوم"، ولا شك أن "فن المقامة" نص من الموروث الأدبيّ، غنيّ بالأنساق والدلالات المختلفة التي تبرز دور عملية التلقي والمتلقي كظاهرة قديمة متجددة في السّاحة التّقديّة المعاصرة، وحتى نثري هذا الموضوع بالحديث المعمق ونكشف مظاهر مفهوم التلقي وسيرورة أثره عبر الظرفية التاريخية جاءت هذه الورقة البحثية في محاولة للإجابة على الإشكالية الآتية:

من هنا نتساءل: هل عرف تراثنا العربي مفهوم التلقي؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فما هو دور المتلقي قديما وكيف أصبح دوره حديثا؟

— ما هي طبيعة العلاقة بين المتلقي والنص ومبدعه في القرن ٤ هـ؟

— كيف يتلقى القارئ المعاصر نصا تراثيا من نصوص القرن ٤ هـ؟

أهمية البحث:

تأتي أهمية المقال في محاولة تقديم تلقي معاصر للمقامة العربية لإدراك أبعادها الجمالية والمعرفية بعيدا عن المفهوم التقليدي الأحادي التأويل، فالتلقي غاية جمالية ومعرفية تشترك في تحصيلها الحواس والثقافة والتأمل والخيال، وعلى المتلقي إعادة بناء الأثر المعرفي في النّص و في الوقت ذاته يتذوق أبعاده الجمالية.

أهم الدراسات التي اقتربت من موضوع هذا المقال:

- ✓ قضية التلقي في النقد العربي القديم للدكتورة فاطمة لبريكي.
- ✓ قراءة النّص وجماليات التلقي للدكتور محمود عباس عبد الواحد.
- ✓ تلقي المقامات للباحث نادر كاظم.

منهجية البحث:

وبغية تفكيك إشكال البحث وأسئلته، نعتمد المقاربة النصية لأن علم النّص تحوّل إلى مقارنة، ومنهج للدراسة الأحكام واستخلاص النتائج، ومدام النّص المستهدف في الدراسة (المقامة) هو نص سرديّ، استندنا أيضا إلى ما يعرف بالسرديات النصية لأنها تهتم بالنّص باعتباره بنية مجردة خصبة البحث في تماسكها وانسجامها، طبعا مع الاستفادة من المناهج الأخرى خاصة المنهج التاريخي في تتبع الظاهرة المقامية وما طرأ عليها من تغيرات.

٢. مفهوم التلقي:

١.٢ المتلقي:

أ- لغة: ورد في لسان العرب مادة (لقي): "هو الاستقبال.. تلقاه أي استقبله... و الرجل تلقى الكلام أي يلقنه، وقولهنّ تعالى: "إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ.." (سورة النور من الآية ١٥) أي يأخذ بعض عن بعض... "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ"، (مندور، ١٩٩٦، صفحة ٠٦)

أي تعلمها ودع بها (ابن منظور، ٢٠٠٠، صفحة ٢٢٧) 'فالتلقي هنا يعني الاستقبال والتلقن والتعلم، وهذه المصطلحات لا تتعارض مع الفهم المصاحب لعملية التلقي، ومما يؤكد ذلك ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: "وَأَنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ" (سورة النمل الآية ٦)، أي "حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمر، جليلها وصغيرها، فخره هو الصدق، وحكمه هو العدل التام". (ابن كثير، ١٩٩٠، صفحة ٣٤٩)

ب اصطلاحا: التلقي في المصطلح النقدي الحديث أن يستقبل القارئ النّص الأدبي بعين الفاحص الدّوابة بغية فهمه وإفهامه، وتحليله وتعليقه على ضوء ثقافته الموروثة والحديثة، وأرائه المكتسبة والخاصة في معزل صاحب النص، حيث يرى هانز روبرتياوس: "...طرق اشتغال القراءة ودور القارئ- المتلقي- في إنتاج هذه العملية" (بو محسن، ١٩٩٣، الصفحات ١٧-١٨). وهذا تصور جديد لمفهوم العملية الإبداعية، من حيث تكوّنها عبر الزمن، التاريخ، واقحام المتلقي أيضا في إنتاج الدلالة القرآنية.

وهنا يتبين اختلاف في نوعية عملية التلقي بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وهذا الاختلاف ليس تعارضاً، إنما هو تباين في نوعية الفهم ومستوى التفهم، فالنظريات الحديثة تركز على القارئ كخالق للمعنى، أما المعنى اللغوي (للتلقي) فيعني اتكاء الفهم على معطيات النص مسبقاً ولا يلعب القارئ الدور الفاعل في خلق المعنى وإعادة صياغة النص، كشریک للمؤلف في إنتاجه.

٢.٢ التلقي والقرآن الكريم

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي جاء بها رسول الله صل الله عليه وسلم، دليلاً على صدق نبوته بلسان عربي مبين، بفضلته توسعت مدارك العرب، وفي أحضانه نشأت علوم العربية، خدمة له وصونا لسانه، وقد كان له أثر مهم في متلقيه قديماً وحديثاً.

و من المسائل المتصلة بكتاب الله العزيز والتي شغلت علماء المسلمين، مسألة الإعجاز في القرآن الكريم. إذ أنّ إثبات هذا الإعجاز هو البرهان البين على صدق نبوة محمد صل الله عليه وسلم، فتباينت مواقفهم واختلفت، بعضهم يرى أنّ إعجازه يكمن في "إخباره عن تاريخ الأنبياء والأمم الماضية، وفي إخباره عن أنباء الغيب التي ليست في استطاعة البشر" (الروماني، صفحة ١١٠)، وقال آخرون إنّ إعجازه يكمن في "تأثيره في القلوب واستلائه على النفوس (الخطابي، صفحة ٩٠)"، و أكثر العلماء ذهبوا إلى أنّ إعجاز كتاب الله "يتحقق في بديع نظمه، وعجيب تأليفه إلى الحد الذي يعجز الخلق على الإتيان ولو بأية واحدة تشبهه في نظمه وأسلوبه وفصاحته (الباقلائي، صفحة ٣٥).

وهكذا حازت بلاغات القرآن الكريم من ترتيب وجوه الكلام، والتمييز بين الأساليب ومعرفة الجوانب الجمالية في نسيج تركيب الجملة العربية" (بدوي، صفحة ٤٣)، فضيلة خص بها القرآن الكريم ليكون آية بينة لنبهه صل الله عليه وسلم، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.

٣.٢ التلقي والخطاب البلاغي في القرن الرابع الهجري (٤ هـ).

لقد كانت البلاغة هي الوسيلة التي استند إليها العلماء للوقوف على أسباب وأسرار الإعجاز البياني في تلقي الخطاب القرآني، لفهم معانيه ومقاصده، وبعد إتمامهم الحديث عن الخصائص والأسرار الفنية توجهوا للحديث عن متلقي الخطاب القرآني، وما يحدثه فيه هذا الخطاب من استجابة وأثر نفسي، وهذا دليل على أنّ الاهتمام بالمتلقي كان منذ نزول القرآن الكريم، ولعلنا نلمس ذلك الاهتمام في أقوال العلماء الموثقة في مؤلفات النقد والبلاغية القديمة: كـ "البيان والتبيين" للجاحظ، "عيار الشعر لابن طباطبا"، "دلائل الإعجاز" لبعيد القاهر الجرجاني و "منهاج البلاغة وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني، كما لم يغفلوا الحديث عن أسباب هذه الاستجابة، وعن الأدوات التي يفترض توفرها لديه: من معرفة اللسان العربي وعلومه ومن ثقافة بلاغية لاستعمالها، إذ أن وظيفة البلاغة الإبانة والإبلاغ أي غاية المرسل (المخاطب) من الرسالة (الخطاب) إفهام المرسل إليه (المخاطب) وإمتاعه وإقناعه.

ومّا لاشك فيه أن تلقي الخطاب القرآني له أثر على تلقي الخطاب الأدبي، من خلال تضلع علم البلاغة بعلوم اللغة العربية، حيث أسست معايير الكشف عن معرفة إعجاز القرآن من حيث مفرداته وتراكيبه وأسراره البيانية والدلالات الجمالية التي تحتاج إلى فطنة المتلقي وخبرته الأدبية، ومتى توفرت هذه المعرفة، استطاع المتلقي الوقوف على التفاوت الحاصل بين الكلام الإلهي والكلام البشري شعرا كان أو نثرا، كما تنتج الخبرة الجمالية المكتسبة من البلاغة وأساليبها متلقٍ بليغ ملم بأساليب البلاغة، لأن الكلام البليغ إذا ألقى إلى المخاطب الجاهل للبلاغة لم يكن لهذا الخطاب أي تأثير على متلقيه.

٣ تأثير الخطاب القرآني على الخطاب الأدبي:

إنّ الخطاب الأدبي تسمية للتمييز بين الخطابات، لأن وجود خطاب أدبي يفترض وجود خطاب غير أدبي وذلك يعود لطبيعة الخصائص والمقاييس التي تميز كل واحد على حدى، فالخطاب الأدبي "صياغة مقصودة لذاتها، وصورة ذلك أن لغة الأدب تتميز عن لغة الخطاب العادي بمعطى جوهري، فبينما ينشأ الكلام العادي عن مجموعة انعكاسات مكتسبة بالميزان والملكة نرى الخطاب الأدبي للغة عن وعي وإدراك، إذ ليست اللغة فيه مجرد قناة عبور للدلالات، إنما هي غاية تستوقفنا لذاتها... بينما الخطاب الأدبي حاجز بلوريّ طلي صورا ونقوشا وألوانا تصد أشعة البصر عن اختراقاته (بن مالك، ٢٠٠٠، الصفحات ٩٧-٩٨)"، إنه الانعكاس لمنظور البلاغة على الأدب شعرا ونثرا ونقدا وخاصة في القرن الرابع هجري (٤هـ) حيث أصبح أهل الأدب يحتاجون في بناء نصوصهم أو خطاباتهم الأدبية إلى متصور (مخطط) يقوم في الأذهان، وإلى أداء يقوم به في اللسان، فكيف يكون ذلك؟

و سنحاول الإجابة عن هذا التساؤل في ما اعتمده عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ وكغيره من النقاد، بأنّ عمليّة تلقي الخطاب، تقوم على التفاعل بين القارئ والنص، حيث يشبه القارئ الجيد للنص "كالغائص في البحر يحتل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز (الجرجاني، صفحة ١٣٠) أي يخرج المعاني البعيدة التي يشبهها بالدّرر، وهذا التّصور للعلاقة الديناميّة بين -القارئ والنص- و هي ما يعرف في النّقد المعاصر بالنّموذج التّفاعلي. قراءة بلاغية لنص التراثي -فنّ المقامة-.

لابدّ قبل الحديث عن مقامات بديع الزمان الهمداني (٣٥٧-٣٩٨هـ)، من التّنويه بأنّ هذا النموذج وُظف كخطاب أدبي يظهر البراعة اللّغوية والأساليب البلاغيّة، فحاء النموذج كمكاشفة لنمط التلقي بين المخاطب والخطاب والمخاطب، والعلاقة التي تربطهم في زمن القرن ٤هـ، وليس بتمييز الخطاب شعريّ كان أم نثريّ.

فمثلا" في "المقامة الوعظية" حرص "الهمداني" على لسان البطل وقد لبس جبة الواعظ على توظيف صور شعريّة في قوله: "ألا وإن الدنيا دار جهاز، وقنطرة جواز، من عبرها سلم، ومن عمرها ندم، ألا وقد نصبت لكم الفخ ونثرت لكم الحب، فمن يرتع يقع، ومن يلقط، يسقط، ألا وإن الفقر حيلة نبيكم فاكتسوها، والغنى حيلة الطغيان فلا تلبسوها (عبده، صفحة ١٦٩)"، وقد تجسّم المشهد في هذا الجزء من المقامة تجسيما تمثيلا يقرب المعنى للأفهام

وييسطه، كما أنه يقتبس التصور التخيلي ليؤثر في المتلقي من الخطاب القرآني الذي شبه الحياة الدنيا بدار الغرور كما في قوله تعالى "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ" (١٧٥ آل عمران).

إنّ المخاطب (الهمداني) يبني خطاب عمله الفني داخل الحوار المسكوت بذوات الآخرين (المخاطبين)، انطلاقاً من الخصائص اللغوية والدلالات الجمالية التخيلية المتشابكة، التي توحى بأنّ التلقي للخطاب الأدبي في القرن ٤ هـ يبين أن المخاطب والمخاطب تربطهم روابط الخطاب اللغوي البلاغي للعصر الواحد.

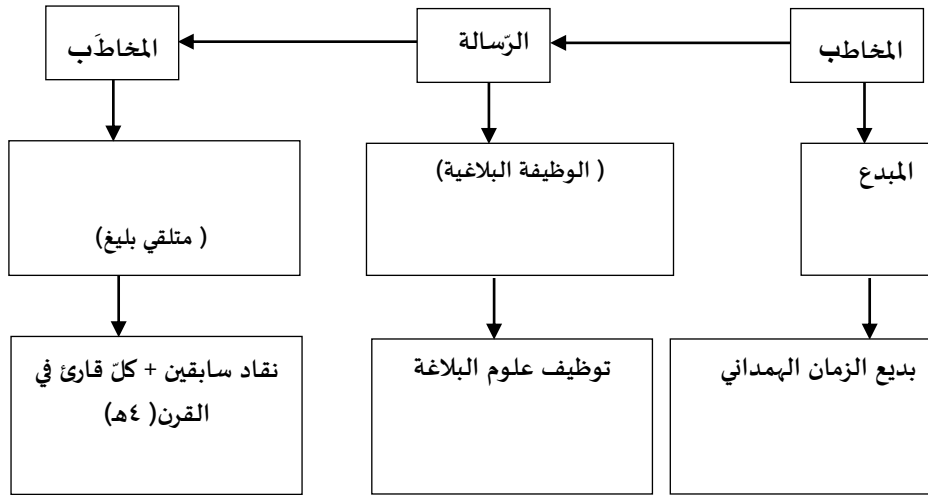
ويمكن أن تمثل لبعض وظائف تلقي الخطاب الأدبي في القرن ٤ هـ بين المخاطب والمخاطب وتأثير الخطاب حسب تحديد جاكسون:

*الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية والتي تكشف عن خبايا المخاطب والتعبير عن عواطفه وخلجاته بغية التأثير في المتلقي (المخاطب).

*الوظيفة الإبداعية أو الإيطالية تهدف إلى إلهام المتلقي مضمون الرسالة التي بثها المخاطب

*الوظيفة الشعرية أو الإنشائية فتتمثل في جوهر الرسالة التي يحملها الخطاب الأدبي (هدف الرسالة).

ويمكن أن تمثل هذه الوظائف في الترسمة الآتية:



المصدر :

من خلال ما سبق يتضح لنا أن علوم البلاغة في القرن ٤ هـ أصبحت معايير بين المخاطب والمخاطب لإيصال الخطاب الأدبي وتلقيه، وهذا ما يحيلنا إلى القضية النقدية الطبع والصنعة في تراثنا العربي القديم، غير أن هذا لا يمنع أن نقول أن المعنى الأدبي يحيا ويتغير داخل تراث لا تنفصم حلقاته وأنّ النص الواحد يمكن أن يقرأ على مر العصور المختلفة بأوجه مختلفة وأن المتلقي أو القارئ حاضر في القرن ٤ هـ ولكنه متخفٍ في لفظة المخاطب.

ومنه يمكن الحديث عن مصطلح التلقي في تراثنا كمفهوم وليس كمصطلح، فقد اهتم النقاد بدور القارئ في إنتاج الدلالة من خلال تفعيل النص و فك شفراته، ولكن بتريخ الجانب الشفوي للتلقي في الشعر و الخطابة مما يعكس لنا اهتمامهم بحسن الإنشاد وجودة الإلقاء، على عكس ما بلوره الفكر الغربي في أوساط الستينات (١٩٦٦م) في إطار مدرسة كونستانس على يدي كل من هانز روبرت هاوس "H.R.Yauss" وفولفغانغ أيزر "Wolfgang Iser" منظرو هذه النظرية.

٤. التلقي والخطاب النقي المعاصر.

لقد ظهرت "نظرية القراءة" (جمالية التلقي) وحملت بديلا مفاده إنتاج معنى مرتبط بنقطة تفاعلية بين النص ولقارئ، وتسعى هذه النظرية التي تولدت في أحضان مدرسة كونستانس الألمانية على يد هانز روبرت ياوس "H.R.Yauss" و"فولفغانغ أيزر" WolfganIser في تصور جديد لسميوزيسالنص و القارئ بعيدا عن القراءات المقيدة التي تحاصر معانيه، وكذا المعايير والقيم القرائية النموذجية السائدة في المرجعية النقدية .

وقد تأثر النقد العربي بهذه الدراسة الجديدة، ويمكن رصد مجموعة من الأقلام النقدية على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر: (عبد الفتاح كليطو في كتابه "الحكاية والتأويل (كليتو، ١٩٨٨) " و"الأدب والغرابية، حميد الحميداني في كتابه "القراءة وتوليد الدلالة" (لحميداني، ٢٠٠٣)، محمد مفتاح في كتابه "التلقي والتأويل (مفتاح، ١٩٩٤) " .

انطلاقا مما تقدم وفي خضم مغامرة البحث عن المعنى في رحلة التأويل ضمن الموروث الأدبي "فن المقامة"، وإذا رمنا تجسيد بعض هذه المفاهيم التي قدمتها "نظرية التلقي"، تم اختيارنا لإجراء "القارئ الضمني"، وهو إجراء يتعلق بـ : "فولفغانغ أيزر" ضمن طروحاته.

١.٤ الضمني le lecteur implicit:

حضي القارئ الضمني بدراسة مستفيضة من طرف المناهج البنيوية، وما بعد البنيوية وهذا ما يجعل الباحث في مجال التلقي يصادف أنواعا كثيرة من القراء، ولكن "أيزر" يبين مفهوم "القارئ الضمني"، : "هو قارئ مختلف فهو يعمل على تشخيص كل ما هو داخلي في النص بواسطة عمل التخيل لإيجاد فرصة التلقي، وهو تصور بموقع القارئ في عملية المواجهة مع النص لإيجاد العلاقة بين العمل الأدبي الإبداعي (حسين، ٢٠١٢، صفحة ٤٨) والمتلقي، وأن هذه العلاقة لا تتحقق إلا بعنصر الفهم

وبهذا يمكن تحديد مظهر "القارئ الضمني" بوصفه نظاما مرجعيا للنص، وهو غير معروف بل هو مسجل في النص ذاته، وهذا النص لا يصبح حقيقة إلا إذا قرئ من طرف الآخرين.

فمن خلال هذا الطرح لهذه الأنماط القرائية نحدد نمطا واحدا، وهو نمط التفاعل بين النص والقارئ من منظور "جمالية التلقي" لطرح الإشكالية الآتية:

كيف يمكن لنصوص المقامات أن تتفاعل مع القارئ لتشكيل بنية افتراضية تسمى بـ"القارئ الضمني"؟

٢.٤ -مراحل تشكيل القارئ الضمني في نصوص المقامات.

أ-أزمة التلقي:

إنّ حديثنا عن "القارئ الضمني" ضمن نصوص مقامات بديع الزمان الهمداني، يبدو أمراً صعباً نوعاً ما، لغموض النص وتعقيده من جهة ولترابطه اللغوي وفقدانه للمواقع تحديد الفجوات أو ما يعرف عند "أيزر" بالفراغات من جهة أخرى و هذه الأخيرة تساعدنا على القراءة والتفسير والتأويل باعتبارها إبداعاً لدال و المدلول، و هي أيضاً تعتمد على الحدث المتبادل بين الإشارات النصية وأفعال كفاءة القارئ.

وإن كان النص التراثي يخلو من الفراغات الدلالية هذا لا يعني عدم استثماره، بل يستدعي فعل القراءة الانزياح إلى مفهوم آخر قدمه "أيزر" يتمثل في (وجهة النظر الجوّالة) (ينظر، سورة ق:١٨-البقرة، ٣-النمل٦). التي تكشف الطريقة التي يكون بها القارئ حاضراً في النص، وهذا ما يساعدنا على كشف هدفنا الأساسي (القارئ الضمني) لأنّ النص الواحد أي(المقامة الواحدة) لا يمكن لها أن تكشف عنه دفعة واحدة، بل تحتاج إلى وجهة النظر المتحركة التي تتجول في باقي نصوص المقامات بقصد تمامه ووضوحه وبناءه.

وبذلك يتجاوز النص التراثي "أزمة التلقي" إلى الوعي بمظهر الموضوع الذي ينبغي تشكيله، وبما أنّ القراءة عملية ديناميكية فعالة وليست عملية سكونية مغلقة، تدفع القارئ إلى التساؤل:

- كيف يقودنا البحث عن تمظهر "القارئ الضمني" في نصوص مقامات الهمداني وهي منفصلة؟ وهل يمكن أن تنجح عملية القراءة في تركيب بنية افتراضية؟

وعليه لا بد " لوعي القارئ من تنظيم صيغة التفاعل بينه وبين النص من أجل سريان الفاعلية بينهما، لأحداث الاتصال الأدبي المشترك بين القارئ والنص بحيث يؤثر أحدهما في عملية تنظيم تلقائية (هولبروت، ١٩٩٤، الصفحات ٢٥٠-٢٥٤).

ومن ثمة تنطلق عملية القراءة من الفرضية الآتية :

إنّ بديع الزمان الهمداني في مقاماته يخاطب قارئه الداخلي عبر بنية سردية أهم مكوناتها:

١- عيسى ابن هشام (السارد)

٢- أبو الفتح الاسكندري (المكدي)

فيعيسى بن هشام يظهر في جملة استهلال السرد، "حدثنا عيسى بن هشام قال ..."(محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٧)، وهي أداة فنية مهمة، يستند السارد الحقيقي المجهول (الهمداني) مهمة السرد، إلى السارد المعلوم/ عيسى

بن هشام، أمّا عن "أبي الفتح الاسكندري" فهو المكدي الذي يحتال على السذج والبسطاء من عامة الناس فهو الموضوع الأساس لمقامات الهمداني في الغالب.

من خلال توضيح شخوص العالم الافتراضي المتخيل، تسعى الدراسة إلى ما كان يهدف إليه الهمداني من إبراز جماليات قرائية، والتي اخترنا منها "القارئ الضمّني" أنموذجاً، يظهر مباشرة من لحظة تعارف (عيسى بن هشام مع أبي الفتح الاسكندري) وهذا ما تكشفه القراءة لاحقاً.

٣.٤ - المفتاح: (المقامة القريضية أنموذجاً)

* لحظة التعرف:

من جماليات بداية ظهور "القارئ الضمّني" ارتباطه ارتباطاً وثيقاً بلحظة التعرف في المقامة القريضية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٧) نجد الثنائي (السارد/ عيسى بن هشام والبطل المكدي المحتال الاسكندري)، يتعرفان على بعضهما بشكل في مبدع، حيث تمت لحظة التعرف بشكّلين: الشكّل الأول (المكدي المحتال)، يتعرف السارد/ عيسى بن هشام على البطل المكدي في أول المقامة بأنه محتال، فيقوم البطل بالحيلة ويظل السارد طوال المقامة في حيرة، جاهلاً ما يدور حوله أهي حقيقة؟ أم حيلة، وقد أدى المكدي المحتال دوره بإتقان تام، وانطلت حيلته على الناس.

ثم ترك البطل الاسكندريّ مكان الحيلة/ الكدية خارجاً، غير أنّ السارد/ عيسى بن هشام تبعه ليعرف حقيقة أمره، وهنا يتم الشكّل الثاني (معرفة الاسكندريّ) في آخر المقامة، حين يُميط لثامه، و يسأله فيعرفه في نهاية المقامة القريضية أنّه الاسكندريّ قائلاً: "فجعلت أنفيه وأثبته وأنكره، وكأني أعرفه ثم دلتني عليه ثنياه فقلت: الاسكندري والله فقد كان فارقنا خشفاً ووافانا جلفاً" (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٧).

فتجلي "المكدي" (أبي الفتح الاسكندري) بدأ تجلي ميلاد "القارئ الضمّني" الذي يُحطم لاحقاً العلاقات المنطقية من المنظور الداخلي للبنية نص المقامة القريضية، ليؤسس مراحل جديدة من تشكّله خلال العلاقات الدلالية لنظيرتها من نصوص المقامات الخارجية من منظور - وجهة النظر الجواله-، على نحو يمنح لـ"لحظة التعرف" من توليد ثنائيات من بينها (الغياب والحضور)، فلا يلتقي الطرفان معاً إلا في عملية بناء المعنى وإنتاج الدلالة أثناء فعل القراءة، التي يعيد فيها الوعي الصّانع (ووعي المتلقي)، الوصل بين الطرفين موضعاً في ترسيمة لاحقة تكشف مراحل تشكّل "القارئ الضمّني".

ومنه ينطلق الحوار القرائي بين القارئ و نصوص المقامات بحثاً عن -القارئ الضمّني- فأول ما يستفز وعيه هو تصارع الجنس الأدبي في النصّ الواحد، على هيئة مكونة من سطور نثرية تتفاوت طولاً، ثم تبدأ سطوراً شعرية تفضي إلى تنوع اللّعب الطّباعي على النحو الآتي:

نثر شعر

..... المقامات كل تقريبا نفسها البنية هذه وتكرر

ربما يعتبر تكرار شكل البنية إلى غاية آخر مقامة تقتضي من المتلقي بحثا عميقا بين طياتها عن "القارئ الضمني"، فمن خلال المتابعة البصرية للعينات من نصوص المقامات المجسمة، تكشف عملية القراءة عن منابت التجربة وتحديد أبعادها الجمالية و ما تقتضيه من تأويل مغاير(التلقي التقليدي) .

ف"الهمداني" إذن وضع قارئ المقامات أمام إبداع مفنخ بالدلالات النصية والتأويلات القرآنية. ربما تحيل القارئ إلى استحضار عمليتين في تعامله مع نص المقامات و هما:

❖ عملية التشفير (Encodage) من جانب المرسل (الهمداني).

❖ عملية فك الشفرة (Décodage) من جانب المرسل إليه (القارئ).

و لتذليل التفاعل القرائي نعتبرهما معا رحم عملية التواصل فلا يمكن أن تتصور فعلا توصليا في غياب الأطراف المساهمة في خلقه وتشكيله وبنائه، خاصة وأنا قد بينا من قبل أو في القسم السابق من الدراسة اهتمام "جمالية التلقي" بالقارئ واعتباره مخرج العمل الأدبي إلى الوجود، بل إنه عنصر أساسي في إتمام عملية إنتاج النصّ الأدبي نفسها، والذي يظل في حاجة إلى أداة تحققه وهي القراءة عبر تداخلاتها المتعددة، وما ينتج عنها من التفاعل بين النصّ والقارئ)، وهو تفاعل ضمّني مستمر وممتد عبر الزمن.

لاشك أن "أبو الفتح الاسكندري" و"القارئ الضمني" عوالم افتراضية، تحين في زمن فعل القراءة، وهو الأمر الذي انتبه إليه "الهمداني"، حيث قدم نصوصا إلى فئة خاصة من القراء افترض أنها تملك قدرة أدبية، تستخرج من نصوصه افتراضات تعمل باستمرار على إبراز طاقتها الجمالية، بالإضافة إلى استحضره قارئاً يحاطبه عبر سياقاً تخيلي تتم به عملية التواصل التفاعلي في لحظة التحيين، ويقصد "بالتحيين" "استدعاء ذات النص إلى ذات القارئ وجعل موارد النص في علاقة مباشرة مع رغبات المتلقي (برهم، ٢٠٠٠، صفحة ٥٦)"، وهذا ما تمكن منه "الهمداني" وصنع بذلك ما يسمى بالترباط الإدراكي بين النصّ وقارئه الحقيقي.

وإذا رمينا تجسيد هذا الكلام أخذنا بعض العينات من "مقامات بدیع الزمان الهمداني" من أجل الكشف عن مراحل تشكل البنية الافتراضية، بتوازي بارز بين الظاهرة الاجتماعية "الكديّة" و بتوافق مع ميلاد و نمو "القارئ الضمني" عبر مراحل عمرية تزول بها حيرة القارئ وقلقه وتوتره، وفق تسلسل منطقي يوافق ملامح شخصية "الاسكندري"، كما تبينه الجداول الآتية:

*ميلاد القارئ الضمّني (لحظة التعرف) (المقامة القريضية).

التلقي البلاغي و تجلي القارئ الضمني في النص التراثي

—قراءة في مقامات بدیع الزمان الهمداني

نعیمة عون سلیم بئقة

* بعد فعل القراءة تم الكشف عن المراحل العمرية للقارئ الضمني التخيلي.

"القارئ الضمني" في سن الشباب في المقامات الآتية:

الجدول رقم ٥١:

المقامة	المكان	المظهر
القریضیة (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٧) ميلاد "القارئ الضمني" وظهوره شابا	جرجان - مجلس سمر شعري	عالم بالشعر
البلخية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٧)	بلخ - طريق سفر	شريف قرشي يحتال على مسافر
الجماعية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٧٤)	بغداد	جائع بليغ
الأرمينية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٢١٣)	أرمينية	جائع
العلمية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٢٣٠)	مطرح العزبة مسافرا	عالم نصح بإدراك العلم
الشعرية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٢٥٢)	الشام مجلس الشعر	راوية عالم بالشعر
السارية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٢٦٣)	سارية مجلس الوالي	الوالي مخلفا وعده
أول الشيرازية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٩٣)	شيراز	نكح خضراء دمنة

ظهور "القارئ الضمني" (الاسكندري - المكدي) في سن الكهولة في المقامات الآتية:

المقامة	المكان	المظهر
الأزادية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٢)	بغداد - سوق	شعاذ يحتضن عياله
السجستانية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٢٢)	سجستان - سوق - محل بيع فواكه	زاهد جرب الحياة يبيع الدواء

التلقي البلاغيّ و تجلي القارئ الضمّني في النصّ التراثيّ

—قراءة في مقامات بديع الزمان الهمداني

نعيمّة عون سليم بتقة

عزير قوم ذل	جرجان مجلس سمر	الجرجانية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٥٦)
حجام	حلوان - حمام	الحلوانية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٩٧)
نكح حضراء دمنة	شيراز	آخر الشيرازية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٩٣)

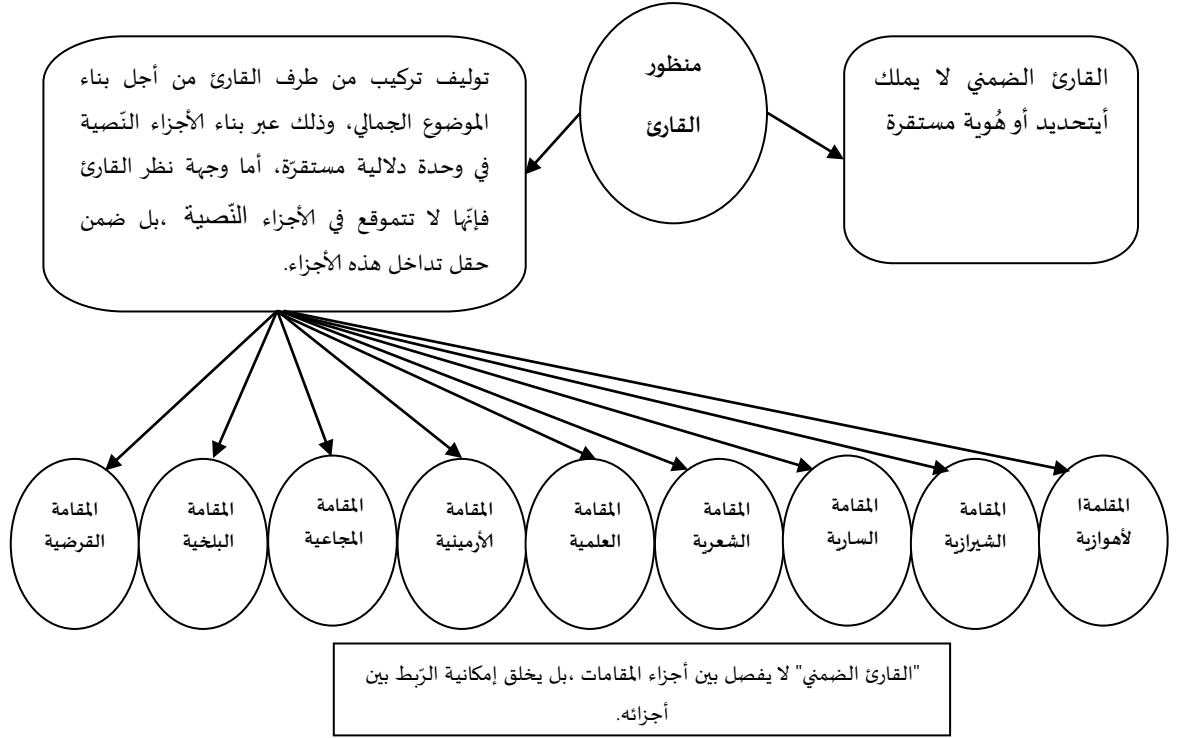
ظهور "القارئ الضمني" (الاسكندري - المكدي) في سن الشيخوخة في المقامات الباقية إما بأن يذكر شبيهه وإما بأن ينعى بالشيخ أبي الفتح الاسكندري ومن بين هذه المقامات.

المقامة	المكان	المظهر
القزوينية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٠٢)	قزوين	تائب بليغ شاعر
الوعظي (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٥١)	البصرة	زاهد واعظ
المطلبية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٢٧٦)	مجلس سمر	زاهد ناصح
المغزلية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ١٩٠)	البصرة	الاسكندري ولا حيلة
الأهوازية (محمد، ٢٠٠٥، صفحة ٦٧)	الأهواز	واعظ يحمل جنازة

نلاحظ من خلال اسم المقامة وتجلي اسم المكان والمظهر، خبرة الهمداني الجمالية في معرفة كل الأمصار في وطنه، وبذلك استطاع نقل صورة فساد الحياة السياسية والاجتماعية في زمن الدولة البويهية، وما صاحبها من حروب وقتل وفقر وانتشار اللصوص والعبارين والمختالين والمكدين، واعتبره قبلاً وفق موضوع جمالي، بين من خلاله مراحل قوة وشدة ظاهرة الكدية في تمثيل تخيلي يوافق المراحل العمرية لحياة الإنسان مثل: سن الشباب والكهولة، ومدى انتشارها في كل أوطان الدولة وأمصارها والدعوة بعبارات التوبة والوعظ بتوظيف سن الشيخوخة كناية عن الإرشاد والإصلاح، في قوالب "تعبيرية جمالية قد نجدها في أوسع أنواع الفنون الأدبية و ما أكثرها في حياة الناس وتعاملاتهم: خطابا، ونهيا، ودعوة، وتوجيها، وتعلما، وتربية، وهذه دعوة لأهل العلم والتربية والتثقيف، ليقصدوا إلى الجاذبية في الأسلوب

والجمال في التعبير (حسن، ٢٠١٢)، "، وبذلك تجلّت جماليات التشكيل من خلال قدرة "الهمداني" على تصوير أمكنة الحيلة و شدة قبح جيّل المختالين وشدة انتشارهم، لتنبه الناس على خطرهم للحد من انتشارهم وقد تنوعت تلك الجماليات لترسم أبعاد "القارئ الضمّني".

وقد يمكن أن نعتبر انكشاف "القارئ الضمّني" إذن وفق لحظات القراءة وتأويل بين الخطاطات (Schémas textuel) أو المنظورات النصّية على النحو الآتي:



٥. خاتمة:

ويمكن أن نستنتج من خلال هذه الدّراسة:

١. نفي الحكم بأن الهيكل القصصي العام للنصوص مقامات الهمداني، ثابت البدايات والنهايات بل إنّها لغة (القارئ الضمّني) في "دمج جملة التوجهات الداخلية لنص التخييل... وإنه فكرة تخيليّة على بنية نصية محايدة للمتلقّي".

٢. إبراز جماليات التشكيل المكاني العام أسماء المدن، والتشكيل المكاني الخاص كمجالس السمر والأسواق وطرق السفر، الشاطئ والمساجد والجوامع وغيرها لا تعطي بعدا جماليا فنيا فحسب بل تتعدى إلى أبعاد نفسية واجتماعية وزمنية وفيزيائية.

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج وهي كالآتي:

- ✓ إنزياح النصوص العربيّة القديمة من المعيارية النّقدية إلى التعددية القرآنية.
- ✓ جمالية التلقي ليست هي البديل الوحيد في القراءة النموذجية، فهي الأخرى قد وقعت في منزلق عندما فتحت باب القراءات على مصراعيه ممّا أدى إلى فوضى القراءة، والخروج عن الضوابط اللغوية والسياسة التي تحكم أي نص، وهذا رأي في السّاحة النّقدية باسم حرية القراءة على النصّ القرآني مثل ما فعل التيار الفكري الشّيخي في التّأويل الباطني للقرآن الكريم، وكذا حامد أبو زيد في كتابه آليات القراءة .
- ✓ تحديد إطار نظري لنظرية التلقي كما جاءت في الدّراسات المعاصرة، والبحث عن جذور لها في الموروث القديم.
- ✓ النصّ التراثي أو النصّ القديم شديد الارتباط اللغوي، ممّا يحرم المتلقي كثيرا من الأضواء التي تشق مسالكه إلى الفهم والتّأويل.
- ✓ ظل فن المقامة عموما هاجسا رئيسا لكثير من المناهج والمقاربات النّقدية، حيث أثبتت رغم تباين تلك المناهج قدرته على خلق أو إثارة الجدل حوله.
- ✓ ثم إن قراءة فن المقامة في ضوء نظرية التلقي أحدثت نقلة نوعيّة للقراءة، من قراءة النصّ بوصفه نصا أدبيا جماليا إلى اعتباره خطابا ثقافيا يشتمل على الأدبي والجمالي والتاريخي والاجتماعي كمكونات ثقافية.

المراجع

١. أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ابن منظور. (٢٠٠٠). لسان العرب، مادة (لقي) ج٣. ١٣. ٠١. بيروت: دار صادر.
٢. أحمد بن عائشة حسين. (٢٠١٢). مستويات تلقي النص الأدبي. عمان، الأردن: دار جرير للنشر والتوزيع.
٣. أحمد بو محسن. (١٩٩٣). نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث، ضمن نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات. الرباط.
٤. حميد حميداني. (٢٠٠٣). القراءة وتوليد الدلالة. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
٥. رشيد بن مالك. (٢٠٠٠). قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص. دار الحكمة.
٦. طبانة بدوي. (بلا تاريخ). التفكير البلاغي عند العرب.
٧. عبد الفتاح كليتو. (١٩٨٨). الحكاية والتأويل. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
٨. عبد القاهر الجرجاني. (بلا تاريخ). أسرار البلاغة، تحقيق هـ -ريتز، ط، . دار الكتب للتراث العربي.
٩. عبدو محمد. (٢٠٠٥). مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني وشرعها. بيروت: من منشورات محمد علي لبيضوي، دار الكتب العلمية.
١٠. علاء الدين حسن. (١٢، ٥، ٢٠١٢). فلسفة الجمال في الفكر الإنساني. ٢٠٢٠/٠٩/١٠
https://www.alukah.net/publications_competitions/0/40886/#ixzz6V7kWWWh5A
١١. علي بن عيسى الروماني. (بلا تاريخ). النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، تحقيق، محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام . مصر: دار المعارف.
١٢. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ابن كثير. (١٩٩٠). تفسير القرآن العظيم، ضبط ومراجعة، مكتبة الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم محمد رمضان، والآية رقم ٦ سورة النمل. ٠١ . بيروت، لبنان: دار مكتبة الهلال.
١٣. لطيفة برهم. (مارس، ٢٠٠٠). اتجاهات تلقي الشعر في النقد العربي المعاصر، علامات ج ٣٥، مج ٩ .
١٤. محمد الخطابي. (بلا تاريخ). بيان إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام . ٠٤ . مصر: دار المعارف.

التلقي البلاغيّ و تجلي القارئ الضمّني في النصّ التراثيّ

—قراءة في مقامات بديع الزمان الهمداني

نعيمة عون سليم بتقة

-
١٥. محمد بن طيب الباقلائي. (بلا تاريخ). أعجاز القرآن، تحقيق، أحمد صقر . ٥٥ . مصر: دار المعارف.
١٦. محمد عبده. (بلا تاريخ). مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني وشرحها.
١٧. محمد مفتاح. (١٩٩٤). التلقي والتأويل. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
١٨. محمد مندور. (١٩٩٦). التقد المنهجي عند العرب. دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
١٩. هولبروبرت. (١٩٩٤). نظرية التلقي، عز الدين اسماعيل (جدة: النادي الأدبي - الثقافي).